العصور العباسية المتأخرة

عصر النفوذ السلجوقي التركي

447-656 هـ / 1055-1258 م

ظهور السلاجقة

شهد القرن الرابع الهجري اضمحلال الدولة العباسية وانفصال أطرافها شرقا وغربا حيث قامت في تلك الأطراف كيانات مستقلة ، وكان لابد للدولة العباسية من عامل احياء ونهضة يعيد للخلافة هيبتها وللدولة نفوذها ، وقد تهيأ لها ذلك بظهور الأتراك السلاجقة الذين تمكنوا في فترة وجيزة من فرض سيطرتهم على أجزاء كبيرة من الدولة العباسية وعلى كثير من ممتلكات الروم البيزنطيين في اسيا الصغرى .

وينتسب السلاجقة إلى إحدى القبائل التركية التي عرفت باسم (القنق) وكانت قد تدفقت من موطنها الأصل في سهول تركستان الى بلاد ما وراء النهر خلال القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة وعرف هذا الفرع من القبائل التركية باسم السلاجقة نسبة إلى جدهم سلجوق بن دقاق الذي رحل بقبيلته الى بلاد الاسلام حيث جاوروا السامانيين والخانيين والغزنويين ، واعتنقوا الإسلام على المذهب السني الذي كان سائدا في تلك البلاد ، واستقروا على شواطىء نهر سيحون واتخذوا مدينة (جند) قاعدة لهم ، ويرجع الفضل إلى سلجوق هذا في توطيد كيان السلاجقة وتوحيدهم تحت زعامته وزعامة أبنائه وأحفاده من بعد .

وبعد وفاة سلجوق بن دقاق انتقلت الزعامة إلى أكبر أبنائه يبغوا أرسلان (اسرائيل) ، والواقع أن السلاجقة استفادوا من الظروف السياسية التي

أعقبت زوال الدولة السامانية في سنة (389 هـ - 998 م) فوسعوا رقعة بلادهم واخذوا ينتقلون بين مدينة نور و بخارى شتاء وسغد صيفا.

الصراع بين السلاجقة والغزنوين

استطاع السلاجقة بعد استقرارهم في بلاد ما وراء النهر أن يجهزوا أنفسهم بالأموال والعتاد ، وكان لتعاظم قوة السلاجقة هذه أثرها الواقع في نفس الغزنوين فقد أدرك السلطان الغزنوي محمود بن سبكتكين مدى الخطر الذي يكمن وراء ازدياد قوة السلاجقة في بلاد ما وراء النهر وخشي أن يكونوا شوكة في ظهره تشغله عن مواصلة جهاده لنشر الاسلام في ربوع الهند ، وكان السلاجقة آنذاك يواصلون غاراتهم على المناطق المجاورة لهم بهدف توسيع منطقة نفوذهم في تلك البلاد .

ونجح زعيمهم أرسلان (اسرائيل) بفضل تحالفه مع الأمير علي تكين من دخول مدينة بخارى بعد أن أوقعا الهزيمة بالأمير ايلك خان . وفي سنة (415 هـ- 1024م) اتصل الخانيون بالسلطان محمود بن سبكتكين الذي كان مقيما آنذاك بالقرب من نهر جيحون وحذروه من تواجد السلاجقة على مقربة من بلاده وخوفوه من احتمال قيامهم بمهاجمة ممتلكاته أثناء غيابه في بلاد الهند ، ويبدو أن السلطان الغزنوي كان يعد العدة لطرد السلاجقة وحلفائهم من بخارى، فعبر على رأس جيوشه نهر جيحون ، فلما علم ارسلان بن سلجوق وحليفه على تكين بذلك رحلا عن بخارى خوفا من لقائه ، فعمد السلطان محمود الى اصطناع الحيلة والدهاء للايقاع بالسلاجقة ، فتمكن من قبض على ارسلان وولده قتلمش وعدد من كبار أصحابه ، وأرسل ارسلان إلى بلاد الهند وسجنه في قلعة تعرف بأسم كالنجر ، حيث أمضى سبع سنوات قام السلاجقة خلالها

بمحاولة فاشلة لانقاذه من السجن ، وظل سجينا حتى وفاته في عام 422هـ .

وأسند السلاجقة قيادتهم إلى ميكائيل بن سلجوق وعزموا على طلب الثأر من الغزنويين ، فالتزموا بالحيطة والحذر ، ونجح ميكائيل في اقناع السلطان محمود بالسماح للسلاجقة بعبور نهر جيحون إلى اقليم خراسان .

وتم لهم ذلك في سنة 416هـ ، على الرغم من تحذير ارسلان حاكم مدينة طوس للسلطان محمود . والواقع أن نجاح السلاجقة في الانتقال الى اقليم خراسان يعتبر من عوامل تثبيت اقدامهم وتدعيم مركزهم في الاقليم المذكور ، اذ تهيأت لهم الفرصة لإقامة دولة قوية تستطيع الوقوف بوجه الغزنويين فيما بعد ، وكان ميكائيل بن سلجوق يدرك تماما مدى قوة خصمه ومكانته في الدولة العباسية نتيجة تأييد الخلافة له، لذلك تجنب الزعيم السلجوقي التورط في خوض أي معركة مع السلطان محمود الا اذا كان واثقا من قوة السلاجقة وقدراتهم على تحقيق النصر .

فشرع في تدعيم قوته العسكرية استعدادا للانقضاض على الغزنويين واقتلاع جذورهم من اقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر . ولم يلبث سكان مدينتي (نسا) و (باورد) أن التمسوا من السلطان محمود العمل على ابعاد السلاجقة عن بلادهم ، فاوعز إلى حاكم طوس باجلائهم عن المنطقة . وجرت عدة معارك بين الجانبين كان النصر فيها حليف السلاجقة ، مما اضطر السلطان محمود الى الخروج اليهم بنفسه في سنة (419هـ - 1028م) ودارت بينهما معركة عنيفة انهزم فيها السلاجقة هزيمة منكرة فقدوا خلالها أربعة آلاف من خيرة فرسانهم .

وأسند السلاجقة قيادتهم بعد هذه الهزيمة الى (جغري بك داود) و(طغرل بك محمد) ابني ميكائيل بن سلجوق، فبادرة للعمل على جمع شمل السلاجقة وتوحيد صفوفهم واعدادهم للمعركة المقبلة، فانتهزا فرصة وفاة السلطان محمود الغزنوي في سنة 421 هـ - 1030 م وعملا على توسيع رقعة اراضيهم وبسط نفوذهم على المناطق المجاورة، فشمل ذلك كثيرا من انحاء خراسان .

ثم ارسلا إلى سوري بن المعتز والي نيسابور، يطلبان السماح للسلاجقة بالاقامة في اطراف هذه المدينة، فرفض طلبهم وبادر بابلاغ رسالتهم إلى السلطان مسعود الغزنوي، فاهتم الاخير بما ورد فيها وادرك ما يترتب على انتقال السلاجقة من أخطار مباشرة تهدد الغزنويين فقرر الخروج لقتالهم وإجلائهم عن بلاده، وأعد لهذه الغاية جيشا كبيرا، اتخذ لقيادته عشرة أمراء وسيره لقتال السلاجقة فدارت بين الفريقين معركة ضارية استعمل فيها السلاجقة المكر والدهاء فتم لهم النصر وتفرق الغزنويين ، وبلغ قيمة ما استولى عليه السلاجقة في هذه المعركة عشرة ملايين من الدنانير من الألبسة والامتعة والدواب .

واستعد السلاجقة لقطف ثمار هذا النصر فعقدوا مجلسا ضم الأعيان والمقدمين والشيوخ واتخذوا قرارا بمراسلة السلطان مسعود ليعبروا عن ولائهم له ويطلبوا العفو منه، وقد أظهر السلاجقة بذلك مقدرة سياسية فائقة، فلم يأخذهم الغرور بعد انتصارهم الكبير على الغزنويين، وأوفدوا إلى السلطان مسعود شيخا من علماء بخارى امتاز بحسن الحديث لينهي اليه رغبة السلاجقة في عقد الصلح معه و الدخول في طاعته فأستجاب مسعود لرغبتهم، واستقر الأمر بعد ذلك على أن تعطى لبيغو وطغرل

وداود ولايات (نسا وفراوه ودهستان)، وان تعطى لكل منهم خلعة ومنشور ولواء. كما تقرر ايفاد القاضي إبي نصر العيني الى السلاجقة ليأخذ عليهم المواثيق بالوفاء للسلطان، والزامهم بالاقتصار على هذه الولايات الثلاث، واشترط السلطان كذلك على أن يحضر أحد هؤلاء الزعماء الثلاثة الى (الدركاه) ، ليكون في خدمة السلطان بعد وصوله إلى بلخ، وتم توقيع الاتفاق وحررت الرسائل الى زعماء السلاجقة، وأنعم السلطان على كل منهم بلقب (دهقان) ، وخلع عليهم خلعة الولاة، تشمل الواحدة على قلنسوة ذات ركنين، ولواء وحلة مطرزة وجواد ومرج وكمر من ذهب برسم التركمان، وثلاثين ثوبا غير مخيطة لكل واحد منهم ، وحصل السلاجقة بمقتضى هذا الصلح على اعتراف صريح من السلطان مسعود بنفوذهم، مما كان له أثر واضح في ترسيخ أقدامهم في خراسان «وأشتد بأسهم وازدادت قوتهم ولاحت عليهم امارات الملك وعلامات الحكم ومخايل السلطان» .

وادرك السلطان مسعود بأن السلاجقة باتوا يشكلون خطرا كبيرا على نفوذه في المنطقة فحاول اجلاءهم عنها وكتب الى امير خراسان يأمره بأبعاد السلاجقة، الا أن الأخير تردد في تنفيذ أمر السلطان خوفا من قوة السلاجقة وكثافة عساكرهم، وأرسل إلى مسعود يقول : « أن أمر السلاجقة قد علا بحيث لا استطيع أنا ولا غيري أن نقاومهم » الا أن السلطان أصر على قتالهم واعتبر امير خراسان مقصرا في أداء واجبه، وأنه لا يصلح لهذه المهمة، وارسل يهدده، فلم يجد امير خراسان بدا من الخروج للحرب فسار في قوة كبيرة في (آخر شعبان من سنة 429 هـ)، واشتبك مع السلاجقة في معركة عنيفة على مشارف مدينة سرخس، انتهت بانتصار السلاجقة .